

الدوامة العراقية: تحليل سياسي للاضطراب الذي يعصف

بمنطقتنا (1 من 2)

المحافظون الجدد غير قلقين على ما يحدث بالعراق من عنف لأن تصاعد كل

أزمة سيقود لتغيير المنطقة

لا نقاش حول مخاطر إيديولوجية تهدد العالم .. و عصابة البيت الأبيض لم

تتغير بل تقدمت خطوات



مولاي هشام

مولاي الأمير هشام العلوي*



ملاوي



دونالد رامسفيلد

هذه مقاربة يكتبها الأمير مولاي هشام، وفيها صوت تحذير ونذير، وتحليل لمخاطر الحملة الأمريكية على العراق والمنطقة العربية بشكل عام. وكما يقول الأمير، فورفته هي كلمة تحذير صريح من القادم الذي سيكون مأساويا وخطيرا، جراء غياب السياسة الأمريكية في الشرق الأوسط، وعدم وجود استراتيجية خروج واضحة من العراق. ولكن الورقة تحمل دعوة صريحة لدعم القوى التقدمية، والقبول كذلك بمجريات اللعبة السياسية والديمقراطية في المنطقة التي قد تجلب معها أصواتا تعارض السياسة الأمريكية. ويرى الأمير المغربي أن التغيير في كل هذا، يجب أن ينشأ من أمريكا، التي تحتاج لإعادة فهم دورها في العالم، وتغيير استراتيجيتها، والعودة للمؤسسات الدولية والقانون الدولي.

"القدس العربي"

أخاطبكم اليوم ويحدوني الأمل في أن أسمعكم صوتا صريحا من الشرق الأوسط. مثل الكثيرين، وانتم منهم، لقد تعلمت الكثير في الولايات المتحدة. ولا أقصد بذلك فقط التحصيل العلمي الراقي في جامعة عظيمة، بل الأمر يتعلق بتجربة انتقالية زرعت في نفسي بذرة الحرية وتعلمت منها قيمة الحرية. وخاصة أن معظم الناس في منطقتنا، بل وحتى في عالمنا، لم تتح لهم مثل هذه الفرصة. فمع أن الناس يولدون أحرارا إلا أن الكثيرين منهم لا يدركون بشكل حقيقي أن الحرية حق من حقوقهم. ولذلك فإنني أتحدث إليكم كصديق يرغب في أن يوصل إليكم بأمانة ودون مبالغة في الكياسة المشاعر السائدة في منطقتنا.

معظمنا سمع بكتاب «العاصفة المثالية» والذي يصور فيه الكاتب بشكل درامي ما حدث إثر اصطدام ثلاث جبهات مناخية في المحيط الأطلسي الأمر الذي ولد دوامة هائلة من العواصف لم تبق ولم تذر حتى أنها ابتلعت كل مركب وجدته في طريقها. أود قياسا على ذلك ان أقترح عليكم بأن الغزو ثم الاحتلال الأمريكي للعراق ولد عددا من التيارات الجيوسياسية العاتية التي باتت في حالة تصادم، والتي تمخض عن تصادمها دوامة من الغليان والتصارع لا قبل لأحد التنبؤ بأبعادها أو رؤية منتهاها، والتي يغلب الظن على أنها ستزداد حدة وشراسة لتبتلع أعدادا متزايدة ممن يغامرون بالولوج إلى ساحتها أو ممن يجدون أنفسهم بلا حول منهم ولا قوة في مركزها.

ليس هذا تحليلي وحدي فقط ولكنه في الحقيقة تحليل ينسب بل هو النوايا المعلنة- لكثيرين في الولايات المتحدة ممن دفعوا باتجاه هذه الحرب.

حرب من أجل السيادة و ليست حرب أسلحة مزعومة

لقد اتضحت الصورة الآن، ولم يعد من الصعوبة الاتفاق على عدد من الأمور: فغزو العراق في الحقيقة لم يكن متعلقا بأسلحة الدمار الشامل، وعلاقته بالديمقراطية وكذلك بالنفط علاقة اسمية فقط. لقد كان الغزو، وما يزال، حربا يقصد منها إعادة صياغة العراق أولا ثم الشرق الأوسط برمته ليصبح منطقة طيعة تنسجم مع المصالح الأمريكية، ومنطقة تتموضع فيها الاهتمامات بقضايا أسلحة الدمار الشامل والديمقراطية والنفط إذ باتت من غير الممكن الآن التعامل معها سوى من خلال الشروط والمواصفات التي تقرها الولايات المتحدة الأمريكية نفسها وترضاها. بشكل أعم، إنها حرب تتعلق باستعراض الولايات المتحدة لإرادتها ولقدرتها على إعادة تشكيل العالم في القرن الحادي والعشرين حسب ما تقتضيه مصالحها وبموجب شروطها هي، وبالقوة لو استدعى الأمر ودونما اعتبار للقانون الدولي أو المواثيق الدولية. ليست الحرب متعلقة بإنجاز تحسينات ملحوظة ومباشرة في

العراق بقدر ما تتعلق بفرض بنود وشروط جديدة لإدارة الحوار والفعل مستقبلا في المنطقة وفي العالم على حد سواء.

ليس هذا سرا، فتلك هي الرؤية المعلنة صراحة لأنصار الحرب من إتباع تيار المحافظين الجدد. إنها رؤية شاملة وجادة وملحة، رؤية تتميز بمحتوى فكري متماسك يكفي لإقناع كثير من الناس بجودها. إنها الرؤية التي تمثل العمود الفقري والسند الإيديولوجي للحرب على العراق، كما تمثل الإطار العام للسياسة التي تتمخض الحرب في العراق عن انتهاجها وتسعى لتعميمها.

من المفيد التذكير في هذا المقام بأن المفكر نورمان بودرهيترز، وهو من أبرز مفكري تيار المحافظين الجدد، كان هو الذي أطلق الحملة في عام 2002 حينما دعا لأن تقوم الولايات المتحدة بلا هوادة بشن الحرب العالمية الرابعة، أي الحرب ضد الإسلام المتطرف. (وكان قد استخدم مصطلح الحرب العالمية الرابعة لاعتباره الحرب الباردة حربا عالمية ثالثة). ورأى بودرهيترز بأنه لا ينبغي أن تقتصر الأهداف على أعضاء «محور الشر» الثلاثة الذين خصوا بهذا الوصف. بل ينبغي حسب رأيه أن توسع دائرة العضوية في المحور لتشمل سورية ولبنان وليبيا على الأقل بالإضافة إلى بعض أصدقاء الولايات المتحدة الأمريكية مثل العائلة السعودية الحاكمة ورئيس مصر حسني مبارك وكذلك السلطة الفلسطينية سواء كان على رأسها ياسر عرفات أو أحد أتباعه. ويرى بأن المنطق السياسي والعسكري للحرب ضد القاعدة قد يستدعي أن تبادر الولايات المتحدة إلى قلب خمسة أو ستة أو حتى سبعة من الأنظمة الأكثر طغيانا في العالم الإسلامي (بما في ذلك المتبني الآخر للإرهاب والمتمثل بالسلطة الفلسطينية بزعامة ياسر عرفات). ويضيف بأن على الولايات المتحدة أن تحمل على عاتقها مهمة امبريالية جديدة لتشرّف بنفسها على ظهور حكومات جديدة في المنطقة تخلف الحكومات الحالية وتكون لها قابلية أكبر للإصلاح والتحديث من الأنظمة الاستبدادية القائمة حاليا، وذلك بهدف منح معتنقي الإسلام الفرصة لوضع أقدامهم على طريق مؤداه مزيد من الحرية ومزيد من الرفاه وحتى يحققوا سلامهم - ليس من باب المصادفة - مقرين بحق إسرائيل في الوجود. ودونما أوهام حول تكاليف ذلك، يحذر بودرهيترز من أن هذا الجهد التمديني العظيم سوف ينجح فقط فيما لو توفرت لدى الولايات المتحدة الشجاعة والإصرار على فرض ثقافة سياسية جديدة على الأطراف المهزومة.

المحافظون الجدد

وذلك هو الهدف الذي يدندن حوله كل من ريتشارد بيرل و دافيد فروم في كتابهما الأخير "نهاية الشر"، الذي يعتبر أشمل ما صدر تعبيراً عن هذا الموقف بعد غزو العراق. يعد أن يكيلا المديح للرئيس بوش لقراره غزو العراق والتعبير عن الخشية من أن يفقد الأمريكان الحماسة لمواصلة القتال، يصر الكاتبان على ضرورة اتخاذ إجراءات عدوانية مباشرة ضد الدول الإرهابية الشريرة مثل إيران وسورية وكوريا الشمالية والمملكة العربية السعودية. فهما يريان بأن الإرهاب يظل هو الشر الأكبر في زمننا هذا. ولذا فإن الحرب ضده لا تحتل حسب وجهة نظرهما أن يهجم الأمريكان سبيلا وسطا، إذ لا يوجد في هذه الحالة ثمة طريق ثالث: فإما النصر المؤزر أو الهلاك المحقق. وإضافة إلى ذلك، فإن كسب هذه الحرب الطويلة يقتضي أن تفرض الديمقراطية على العالم الإسلامي ولو بالقوة.

بالطبع، يستخدم المحافظون الجدد كلمة "الإرهاب" بأسلوب يخدم أغراضهم ولكنه في نفس الوقت مشوش وأبعد ما يكون عن الرشاد. فعلى سبيل المثل، نجد بيرل وفروم يصران في لحظة من اللحظات على ضرورة أن تتبنى الولايات المتحدة أجنحة عريضة، تكاد تكون مستحيلة، مؤداه ردة كل الأنظمة التي تستخدم الإرهاب سلاحا للدولة ضد أي كان. ثم يبدو واضحا أن هدفهم ينحصر فيما يصفونه بـ "العنصر المتطرف ضمن الإسلام الذي يسعى للانقلاب على ثقافتنا".

ثم ما يلبث هذا العنصر المتطرف أن يتحول سريعا ليشمل كل قطاع من قطاعات العالم الإسلامي في الزمن المعاصر، والذي يعتبر في توصيفهم على حد تعبير أحد المعلقين على كتاب بيرل وفروم "مرجلا هائلا من الكراهية والجريمة والظلامية والخداع". وكما هو متوقع، ما أن يدخلوا في التفاصيل حتى يتبين جليا أن

مفهومهم للإرهاب ينطبق حصراً على كل الجماعات العربية والإسلامية التي تقاوم المطامع الأمريكية والإسرائيلية. وتجدهم يقولون: "لم تنته الحرب على الإرهاب لأن القاعدة وحزب الله وحركة حماس ما تزال ترتكب أعمال القتل"، ولا مفر من أن ينتهي الأمر بالمحافظين الجدد إلى تصنيف أحداث الحادي عشر من أيلول (سبتمبر) والمقاومة الفلسطينية في خانة واحدة، جاهدين لتحويل جام الغضب الأمريكي باتجاه حزب الله وحركة حماس، والسلطة الفلسطينية، ومصرين على أن من غير الممكن الفصل بين الإرهاب الإسلامي ضد إسرائيل من جهة والإرهاب الإسلامي ضد الولايات المتحدة وأوروبا من جهة أخرى.

ولذلك، فإن من الخطأ الظن بأن كل مؤيدي غزو العراق يشعرون بالأسى تجاه ما آلت إليه الأوضاع في العراق. ولعل بعضهم يكون قد خدع العامة عن قصد وترصد، وحتى خدعوا أنفسهم، أو ربما أقنعوا أنفسهم بطريقة أو بأخرى، بأن العراق يمكن أن يغزي وأن يسيطر عليه بسهولة وأن مشروع احتلاله برمته لا يتجاوز ما يشبه الرقصة الزنجية. ومع ذلك، وبغض النظر عن الأسلوب الذي استخدموه في تسويق الحرب للعامة، فإنهم كانوا دوماً مستوعبين - وإن لم يردعهم ذلك البتة - لإمكانية أن تتمخض مغامرتهم عن النتائج البغيضة التي رأيناها فعلياً حتى الآن، بما في ذلك انتشار مظاهر التمرد، وتسرب العناصر الجهادية المتطرفة، وارتفاع أعداد القتلى والمصابين من العساكر والمدنيين على حد سواء، واللجوء إلى الإجراءات القاسية لفرض الاحتلال سواء من قبل القوات الأمريكية أو المجموعات المسلحة العاملة لحسابها.

يقول أحد المعلقين مشخصاً موقف المحافظين الجدد: "إن الأحداث التي تبدو سلبية - مثل لجوء حزب الله للمرة الأولى لاستهداف المدنيين الأمريكيين واستعداد القوات الأمريكية للحرب مع سورية - والتي تعتبر مؤسفة في حد ذاتها، ما هي في الحقيقة إلا جزء من الأجندة الموسعة للصفور. فكل أزمة من شأنها أن تورط قوات الولايات المتحدة في المنطقة أكثر فأكثر، وكل تحرك مناهض لذلك من شأنه أن يخلق مشاكل إضافية لا يمكن أن تعالج إلا من خلال مزيد من التدخل الأمريكي، وهكذا تستمر الدوامة إلى أن تنشأ حكومات ديمقراطية قادرة على إدارة الأمور أو فيما لو فشل هذا الخيار فلا مفر من أن تحكم القوات الأمريكية المنطقة برمتها". ويقول ناقد آخر: "حتى يتسنى تنقية الإسلام من العناصر التي يعترض عليها المحافظون الجدد، فإن الكراهية المتزايدة والتطرف المتنامي وربما حدوث أعمال إرهابية من شاكله ما جرى في الحادي عشر من سبتمبر بسبب الحرب على العراق، كل ذلك لا يعتبر من وجهة نظر المحافظين الجدد أثراً جانبيّة غير مرغوب فيها وإنما ذرائع ضرورية لتبرير التدخل الأمريكي العدواني".

منطق المحافظين الجدد



من المهم إذن استيعاب أن كثيرا من المحافظين الجدد من أنصار الحرب على العراق لا يثبط من همهم احتمال توسع الصراع وتعمقه سواء في العراق أو في المنطقة بأسرها بقدر ما يحسمهم ويشد همهم. فجميعهم عاقدون العزم أن يتم التعامل مع مثل هذا الاحتمال بكل ما يتطلبه من إرادة وقوة، إذ إن ذلك من وجهة نظرهم ضرورة تحتمها الرغبة في تحويل كل دائرة محتملة من الصراع إلى نصر عزيز. وهم يتوقعون أن يستغرق إنجاز مثل هذا النصر زمنا طويلا جدا وجهدا هائلا، لأن ذلك يعني عدم الاكتفاء بأقل من تحطيم أو ترويض العالم العربي والإسلامي، وإخضاعه للإرادة السياسية للولايات المتحدة الأمريكية، وإجباره وإجبار المجتمع الدولي على قبول الصيغة الأمريكية لحل المشاكل المتعلقة بالإرهاب، والتحول نحو الديمقراطية، والأسواق الحرة، واستقرار أسعار النفط وضمان تدفقه، والصراع الإسرائيلي - الفلسطيني، ومسألة أي من الدول مسموح لها اقتناء أسلحة الدمار الشامل.

تلك هي الأهداف الإستراتيجية لمصممي هذه الحرب، قد تجدهم يلجئون خلال حملاتهم العسكرية إلى توفقات تكتيكية (وسيلية) وانضباطات معينة، وقد يعدلون من لهجاتهم السياسية والدبلوماسية، ولكنهم لا يتنازلون قدر أنملة عن هذا البرنامج.

قد تغري الظروف الحالية باعتبارهم أتباع أيديولوجية (عقيدة) متطرفة في موقف خطابي دفاعي. ولكن مهما كانت الأضرار التي لحقت بهذه الأيديولوجية، وأيا كانت صيغة التعبير عن ذلك من قبل كتاب الأعمدة و المعلقين، فإن الإستراتيجية الأساسية التي تروج لها أيديولوجيتهم هي الحاكمة والمسيطرة في الميدان. لقد استوعب المحافظون الجدد أكثر من أي شخص آخر كيف يمكن للفعل الهائل والحاسم أن يغير من مجال الممكن والمحتمل. وها هو غزو العراق واحتلاله بمائة وخمسين ألف جندي أمريكي يحول إستراتيجيتهم الخطابية إلى نزعة تاريخية ملحة، ويفرض على الجميع تبني مثل هذا المنطق. لقد نجحت أيديولوجية المحافظين الجدد من خلال فرض هذا التدخل الضخم في تحديد الشروط والمواصفات، ليس فقط فيما يتعلق بالجدل وإنما أيضا الفعل؛ لقد فرضت اتجاها نحو أحداث سيكون من الصعوبة بمكان التراجع عنها.

في منطقتنا، ليس من السهل تجاهل حقيقة أن أيا من أعضاء حزب الحرب المخزيين في تكتل المحافظين الجدد لم يطرد أو يعاقب على ما بدر منه من تصريحات أو تنبؤات مخادعة أو متناقضة أو خاطئة، بل إن مشروعهم في اضطراد. فرغم التأكيدات المتكررة بأنه قد تم استعادة "السيادة الكاملة" في العراق إلا أن القوات المسلحة الأمريكية ما تزال جائمة على صدره وباقية في أرضه، ولا تزال القواعد الأمريكية يشرع في بنائها

(وقد اكتمل بناء أربع منها ويخطط لإنشاء أربع عشرة أخرى). وفي مبادرة لسحب البساط من تحت أرجل مبعوث الأمم المتحدة الأخضر الإبراهيمي، عينت الولايات المتحدة الأمريكية إيد علاوي رئيس وزراء عراقيا مؤقتا، وهو الشخص الذي طالما كان مقربا من وكالات الاستخبارات الأمريكية والذي يردد مزاعم المحافظين الجدد بأن العراق غدا المسرح الأساسي لخوض الحرب على الإرهاب حيث تواجه كل "الأمم المتحدة" مجتمع "قوى الشر". والآن، ها قد تم تعيين مجلس انتقالي وذلك من خلال عملية يتحكم بها من الألف إلى الياء، كما ذكرت صحيفة "نيويورك تايمز"، مجموعة مألوفة من الأشخاص ينتمون إلى نفس الشريحة الضيقة التي استقطب منها أعضاء أول مجلس حكم عراقي عينه الأمريكان. في هذه الأثناء، تتخذ أكبر سفارة أمريكية في العالم من أحد قصور صدام حسين مقرا لها.

لا معارضة

إذا ما تركنا العراق برهمة نجد ان الكونغرس الأمريكي قد أجاز بأغلبية 435 صوتا إلى أربعة أصوات قانون محاسبة سورية في حدث يذكرنا بقانون تحرير العراق الصادر في عام 1998 والذي طالب حينها بتغيير النظام في العراق. وبأغلبية 376 صوتا إلى ثلاثة أصوات أجاز مجلس النواب الأمريكي قرارا يخول الإدارة الأمريكية استخدام «كافة الوسائل المناسبة» - وهي لغة الضربات الاستباقية - لمنع إيران من تحقيق قدرات سلاحية نووية. وما من شك في أن اللغة المستخدمة ضد إيران تزداد صرامة يوما بعد يوم في الكونغرس الأمريكي حيث ينادي المتشددون من أنصار إسرائيل وخصوم إيران، كما تشير «كريستيان سيانس مونتور»، بانتهاج سياسة تستهدف تغيير النظام في إيران تماما كما حدث في حالة السياسة الأمريكية تجاه العراق في أواخر التسعينيات.

وكما تؤكد هذه المواقف التي ترقى إلى شبه إجماع بين المصوتين في أعلى هيئات تشريعية أمريكية فإن مثل هذه المناورات العدوانية تجري دون أدنى نقاش جدي من قبل معارضة حقيقية.

ومن الدارج في الولايات المتحدة أنه إذا لم يرغب الحزبان الجمهوري والديمقراطي في مناقشة قضية ما، فإن الإعلام يعزف عن مناقشتها أيضا. والعجب كل العجب في أن مثل هذه الإجراءات التي يراها باقي العالم خطيرة جدا تظل غير مرئية ولا تحظى بشيء من الحوار في داخل الولايات المتحدة الأمريكية. وهذا ما يجعل المرء يجزم بأن موقف المحافظين الجدد سواء في الساحة العراقية أو في داخل الولايات المتحدة الأمريكية لم يتراجع قيد أنملة، بل يمكن الجزم بأنه في الحقيقة قد تقدم نحو مرحلة جديدة.

الإسلام الجهادي

العنصر الآخر في هذه الدوامة المتفجرة هو ذلك النمط من الإسلام الجهادي الذي يجسده أسامة بن لادن الذي يعلم هو الآخر بأن الفعل الضخم والحاسم من شأنه أن يغير ساحة اللعب التاريخية، والذي بادر بأول ضربة بارزة في هذه الدائرة الجديدة والخطيرة للعنف. علينا أن نتذكر بالطبع بأن ابن لادن أصبح رأسا وعلما للأيديولوجية الجهادية المتطرفة التي انتشرت في أرجاء المعمورة وعلينا أن نعترف بأن هذه الأيديولوجية متجذرة في عناصر من التاريخ والثقافة العربية والإسلامية والتي لا يمكن التوصل منها بافتراض أنها من مخترعات الغرب، ويمكن تعقب هذه العناصر ابتداء من التوجه القطبي المتطرف والموجود في بعض تيارات الإخوان المسلمين إلى بعض أشد التفسيرات رجعية في نطاق الحركة السلفية. كلنا يعلم كيف عملت الولايات المتحدة الأمريكية وغيرها من الأقطار على تجميع هذه العناصر معا ومولتها وسلحتها وحولتها من خلال التدريب والإعداد إلى قوى مقاتلة كوسيلة لمحاربة «الشيوعية الملحدة» في أفغانستان. وعلينا أن نقر أيضا بأننا كنا في غفلة من نشأة الثقافة والعقيدة الجهادية والتي لم نعرها الاهتمام الذي تستحق لفترة طويلة من الزمن. وكثيرا ما كنا نجبن في وجه هذه العقائد لمجرد أنها ترتدي رداء الوحي. فما كان من هذه القوى إلا ان شقت طريقها نحو الصدارة إسلاميا وعالميا في ساحة الوعى الأفغانية، ولم تقنع بالانسحاب إلى الجنبات إثر انهزام

الاتحاد السوفييتي وخروجه من أفغانستان .

وبالفعل، لقد غيرت أحداث الحادي عشر من أيلول (سبتمبر) التي مثلت أوج طموحاتهم وجه العالم. لقد كانت الهجمات المريعة في ذلك اليوم محاولة لتغيير علاقة المسلمين بالإسلام ثم علاقة المسلمين والإسلام بالعرب، وإقامة منطق جديد يقوم على المواجهة الشاملة ولا قبل لأحد بمقاومته .

يواجهنا الآن تحد جديد يتمثل في المسؤولية الملقاة على عاتق جميع المسلمين بأن يرفضوا التشويه المسيء لديننا، هذا التشويه الناجم أساسا عن هذه الإستراتيجية الجهادية الجديدة. علينا أن ندعم التقليد المنطقي للإسلام، ذلك التقليد المنفتح والمتجه نحو بناء مستقبل حقيقي وأمن للأمة الإسلامية بدلا من الرجوع إلى أساطير الماضي الذهبي. لا شك بأن ذلك أمر صعب، ولكنه في نفس الوقت عمل سياسي لا غنى عنه. يجب أن نعمل حتى يصبح من المستحيل بشكل قطعي أن يفكر الشباب مرة أخرى بأن خطف الطائرات وتحويلها إلى صواريخ تقذف بها البنايات وكذلك قطع رؤوس الصحفيين عمل رباني. إن واجب المسلمين الذي لا مفر من القيام به هو مكافحة وقهر كل أيديولوجية من هذا النوع، والتي في نهاية المطاف تستهدف اضطهادنا حيثما وجدت وبكل الوسائل المتاحة. كما أن من حق كل من يهاجم من قبل هذه القوى أن يكافحها وأن يقهرها .

أظن أن معظم المسلمين فهموا ذلك يوم الثاني عشر من أيلول (سبتمبر)، فمعظم المسلمين لم يظنوا بأن قتل الآلاف من موظفي المكاتب في نيويورك كان بأمر من الله لمجرد ان الحكومة السعودية دعت القوات الأمريكية إلى بلادها ناهيك عن أن يكون ذلك بسبب سايكس بيكو. إن القضية الوحيدة التي أثارها ابن لادن ولقيت صدى لدى المسلمين-وليس فقط لدى المسلمين- كانت قضية الظل الذي يعانيه الفلسطينيون. وهنا، كان الغضب تجاه المسؤولية الأمريكية عن هذه الحالة قد خفت حدته بسبب الإحساس بأن الولايات المتحدة لربما كانت ما تزال قادرة على لعب دور الوسيط النزيه. لقد غدا من المفهوم أن ابن لادن تجاوز أعراف النضال المشروع وأصبح بذلك هدفا للانتقام.

*عضو في الأسرة المغربية المالكة